أعمدة الفكاهة :

جحا الألمانى

أو

مرآة البومة

للأستاذ كامل كيلانى

لا يسع الباحث — مهما أغفل من الشخصيات الجحوية فى أرجاء العالم وهى كثيرة كما رأيتم — أن يغفل الحديث عن « تل » جحا الألمان الملقب : بـ « مرآة البومة » .

فنحن إذا تركنا الشرق الذى أبدع فيما أبدع من أعلام الفكاهة الشرقية : هذين الجحوين الفاتنين : الشيخ « أبا الفتح دجين بن ثابت » والأستاذ « نصر الدين » ، وانتقلنا إلى ألمانيا رأينا شخصية جحوية ثالثة تظهر فى العصر الذى ظهرت فيه شخصية

منهما سنة ، فهى تحبل مرة وهو مرة ، وهى ترضع ولداً وهو يرضع ولداً ، وأن ينص هذا القانون على أن من يستعمل (نون النسوة) يعاقب بغرامة قدرها عشرة جنيهات !

يا سيداتى ، إنكن تعودتن منا التشجيع والتصفيق والهتاف ، ولكن المسألة خرجت عن المجاملات وصارت مسألة موت لهذه الأمة أو حياة ، فأعدن التفكير فى أسس هذه النهضة ، واجعلن مصلحة الأمة هى الميزان فيها !

يا سيداتى ، لقد كنا نرجو منكن أن تدفعن عنكن هؤلاء السفلة من الرجال ، وأن تصفعنهم على وجوههم النجسة ، كما تصفع المرأة العفيفة أحد هؤلاء الكلاب إذا حاول الاعتداء على عفافها ، وأن تقاطعن هذه المجلات الداعرة الخبيثة التى تؤذى شرفكن باسم الصحافة والفن ، وأن تثرن على هذه الأفلام السينمائية الداعرة ، وأن تخرجن معلمات حاذقات وتنادين بمنع كل شاب مهما كان شأنه ، معلماً أو مفتشاً أو ناظراً ، من تجاوز عتبة مدرسة من مدارس الأناث ، فهل تحققن هذا الرجاء ، هل تقمن هذه النهضة على أساس الدين والخلق والعلم النافع ؟ !

(دمشق) **على الطنطاوى**

الأستاذ « نصر الدين » أعنى فى القرن الرابع عشر الميلادى ، وهو رجل شديد الشبه بجحا التركى ، يكاد يكون — فى كثير من أحواله — نسخة مكررة له ، إن لم يكن على التحقيق .

وقد نشأ « تل » : جحا الألمان ، كما نشأ صاحبه الأستاذ نصر الدين : جحا الأتراك فلاحاً يحرث الأرض ويزرعها .

وقد ولد « تل » فى مدينة « كنيت لنجن kneit lingen » من أعمال « برنزويك Brunswick » ومات فى « مين Molln » بالقرب من « سلسفيج Sblossiuig » عام ١٣٥٠ . قالوا :

وكان كثير السياحة والتجوال على قدميه فى أنحاء ألمانيا ، ولم يتجاوز « تل » منتصف العقد الثانى من عمره حين مات أبوه فى مدينة « هلى Holle » . عاش « تل » و « نصر الدين » كلاهما فى عصر واحد ، كما ترون ، فى بلدين متباعدين ، من قارتين متجاورتين .

وقد أطلق عليه لقب « مرآة البومة » ، وهو لقب بارع الدلالة رائع المغزى . فإن البومة — برغم إجماع الناس — مهما تباينت أجناسهم وعصورهم — على النفرة منها ، واستنكار صورتها — لا ترى فى المرآة إلا وجهاً طبيعياً ليس به ما ينكر ، ولا فيه ما يعاب . وهو لون مبتدع للتعبير عن الحكمة المأثورة الخالدة : « إن المرء لا يرى عيب نفسه » .

وقد شاء بعض الباحثين أن يميز « تل » ذلكم الفلاح الذكى بقسط موفور من الغفلة ، كما حلا لآخرين أن يعزوا إليه شيئاً قليلا من الخبث . واستدل بعضهم على ضيق ذهنه وموفور غفلته ، بما يؤثر عنه من المغالاة فى تطبيق ما يسمع تطبيقاً حرفياً ، والوقوف عند مدلول الألفاظ الحرفى ، غير معنىّ بما تنطوى عليه فى أثنائها من دلالات حقيقية كانت أم مجازية .

وقد افتن المتخيلون فى نسبة كثير من الطرائف إليه فى هذا الباب تمثل — أكثر ما تمثل — ألواناً من آراء متخيليها وروح الدعابة الأصيلة فى نفوسهم .

ولكن أىّ الشخوص الجحوية سلم من أمثال هذه الغمزات؟ على أن سواد الباحثين يذهبون — فى غير مغالاة — إلى أن « مرآة البومة » كان فلاحاً ذكياً مستقيم الفطرة ، وأنه لم يلجأ إلى التشبث بحرفية مايلقى إليه من حديث ، إلا رغبة فى السخرية من غرور سكان المدن المتحضرين الذين لا يستطيعون إخفاء

ما يضمرونه من احتقار لأمثاله من الفلاحين .

ويستدلون على ذلك بقصته مع الخباز ، وإليكم خلاصتها فما يتسع الوقت لغير الخلاصات .

قدم « مرآة البومة » على خباز فى بعض المدن ، واتفق معه على أجر يومى لعمله . وأمره الخباز ذات يوم أن ينجز — فى غيبته — ما اعتاد أن ينجزه كل يوم من أرغفة الخبز .

فسأله « تل » متباهاً : « ماذا أخبز ؟ » .

فضاق صدر الخباز بغباء صاحبه ، وقال له متهكما :

« اخبز لنا يوماً وغربانا ! » :

وما كان أشد حيرته حين عاد فرأى صاحبه يطبق ما سمعه منه تطبيقاً حرفياً ، فيخبز كل ما لديه من الدقيق بعد أن يقطّعه على صُوَر البوم والغربان وأشكالها ، ولا يكاد الخباز يعود ، ويرى ما فعله « تل » حتى يتملكه الغيظ ، فينهال عليه تعنيفاً وتقريعاً . فيقول « تل » : « ماذا يغضبك ؟ ألم تقل لى ذلك ؟ ألم تأمرنى أن أخبزه يوماً وغربانا ؟ » .

فإذا اشتد هياج الخباز قال له « تل » : « هوّن عليك ياصاحبى ولاتتمادى فى غضبك ، وخبرنى بثمن ما أتلفت من خبز؟» .

فيقول : « جنيهان » فينقده « تل » ما طلب . ثم يحمل السلة إلى السوق ، فلا يكاد يراها الناس حتى يتهافتوا على شراء تلك الأشكال الطريفة التى أبدع صنعها ولم يكن لهم عهد بمثلها فيبيعها بخمسة أمثال ما دفعه للخباز . ويَنْمى إلى الخباز ما ظفر به صاحبه من نجاح ، فيعود إليه مستعطفاً ، ليستأنف عمله ، بعد أن ظهر له وجه الفائدة فى ابتكار « تل » ولكنه لا يعثر له على أثر . فقد غادر المدينة ، وكأنما كان « تل » يتوقع هذه النتيجة ، فذهب إلى مكان آخر ليستديم حسرة الخباز عقاباً له على ما أسلفه إليه من إساءة وغرور .

ومن بديع ما يستدل به الباحثون على حرص « تل » على التقيد بحرفية ما يقول بعد أن استدلوا — بما أسلفناه — على حرصه على التقيد بحرفية ما يسمع ، تلكم الطرفة التالية :

سأله سائل : ترى بعد كم من الزمن أبلغ المدينة ؟

فقال له « تل » : سر فى طريقك .

فحسبه الرجل لم يسمع ، فأعاد عليه السؤال مكرراً رجاءه بصوت مرتفع . فأجابه « تل » نفس إجابته الأولى . فغضب الرجل وحسبه يهزأ به ، فصرخ فيه : أجب عن سؤالى أيها الغبى ؟

فقال له : « سر فى طريقك » فتركه الرجل ، وسار فى طريقه وهو يكيل له اللعنات ، والغضب آخذ منه كل مأخذ ، ولم يكد الرجل يبتعد عنه قليلا حتى صاح به « تل » أن يتمهل ريثما يفضى إليه بأمر يعنيه . فوقف الرجل متعجباً من غرابة أطوار هذا الرجل . وسأله : « ماذا تريد ؟ » .

فقال له فى هدوء الفيلسوف : « إذا سرت على هذا النهج بلغت المدينة بعد ساعتين » .

لم يفهم الرجل أول الأمر ما يعنيه « تل » بقوله : سرْ فى طريقك وحسبه يتعالى عن إجابته ويرغب فى التخلص من رؤيته ، ولكنه أدرك أخيراً أن صاحبه على صواب ، فلم يكن فى وسعه وهو يتوخى الصحيح فى إجابته أن يعرف مدى الزمن الذى يستغرقه حتى يبلغ المدينة قبل أن يتعرف من مشيته مدى اتساع خطوته .

ألم يقل أبو نواس : « عرفت شيئاً وغابت عنك أشياء » ثم ، ألم يقل المتعمقون : إن لكل مسألتين وجهين على الأقل ؟ فها هو صاحبنا يأخذ فى فهم ما يسمع وما يقول بالوجه الثانى للمسألة ، فلا يبعد فى حاليه عن الصواب . ورحم الله القائل :

« خذا وجه هرش أو قفاها ، فإنما

كلا جانبي عرش لهن طريق »

ومن عجيب المصادفات أن تجنى الحرفية والتشبث بالمشاكلات اللفظية على صاحبنا بعد مماته ، كما جنت عليه أثناء حياته . فإن لقبه : « مرآة البومة » مؤلف — كما ترون — من لفظين : « مرآة » و « بومة » ، وكلمة مرآة تكتب بالألمانية « سيجل siegel » وتذكرنا حروف رسمها كلمة « سجنجل » ومعناها — فيما يعلم القارىء — مرآة ، وهى ترجمتها بالعربية .

ولكن حروف سيجل ، إذا لفظها الألمانى قلب الياء الأولى باء ، فنطقها « شبيجل » دون أن يثبت هذا القلب فى كتابتها . وقد استخرج الفرنسيون منها لفظاً يجمع بين الكتابة والنطق ، وتمسكوا بالحرفية فى كليهما ، فأضافوا إلى بنية الكلمة

المكتوبة حرف « الباء ؟ » الذى ينطق به الألمان ولا يثبتونه . وبذلك تألفت منهما كلمة « اسپيجل espiegle » ، ومعناها : ألعبان أو هازل ثم خرجوا منها كلمة « espieglerie » ومعناها الألعبانية أو المجون . ثم أوحى لهم هذا التخريج الجائر ومشتقاته أن ينحلوه قصصاً يدور محورها على الهزل والمجون . فكان لهم ما أرادوا . ورحم الله المتنبى القائل : « ومثلك من تخيل ، ثم خالا » .

وقد ذكرتم تلكم المغالطة اللفظية — أو الحرفية إن توخينا الدقة — بمغالطة أخرى منطقية ابتدعها ابن الروى الشاعر البارع منذ أكثر من أحد عشر قرناً تخلص منها إلى نتيجة عجيبة ، لا تقل فى غرابتها عما وصل إليه ذلكم الساخر الفرنسى الذى جوز لفظ المرآة — وهى ترمز إلى الطيبة أو الغفلة — إلى لفظ « الألعبان » وفيه من الخبث ما فيه .

اتخذ ابن الروى من قول الإمام العراق أبى حنيفة بجواز شرب النبيذ وتحريم شرب الخمر ، ومن رأى الإمام الحجازى الشافعى : أن النبيذ كالخمر ، نتيجة لم تخطر على بال الامامين على بال . أراد الشافعى كما تعلمون وكما يعلم ابن الروى المغالط الأكبر أن يقول :

« إن النبيذ كالخمر فهو مثلها حرام » ، وعكس ابن الروى قصد الإمام فقال : مادام النبيذ حلالا فى رأى أبى حنيفة ، والخمر كالنبيذ فى رأى الشافعى ، فالخمر حلال كالنبيذ فى رأى القياس المنطق .

وهكذا استطاع الخبيث بما وهبه الله من أدوات الخبث وفنون المغالطة أن يتخذ من المنطق سلماً إلى الفرار من الحقيقة التى لم يخلق المنطق إلا لدعمها وبنائها ، فقال : غفرالله له :

أجاز العراق النبيـــذ وشربه
وقال : « الحرامان الدامة والسكر »
وقال الحجازى : « الشرابان واحد »
فخلت لنا من بين قوليهما الخمر
سآخذ من قوليهما طرفيهما
وأشربها ، لا فارق الوازر الوزر

الخط السمير

ومن بديع سخرية « تل » وتهكمه ، ما تمثله لنا قصته مع أحد السادة وكان يصحبه إلى الغابة ليصطادا ؛ فلقيا فى سيرهما أرنبا صغيراً يجرى مسرعاً ، وكان صاحبه كشاعرنا ابن الروى ، من المتطيرون . فلم يطق مواصلة سيره خشية أن يصيبه مكروه فى ذلك اليوم ، وحاول « تل » أن يقنعه بسخف ما يذهب إليه المتطيرين ، فلم يفلح . فلما جاء اليوم التالى رأيا فى طريقهما إلى الغابة ذئباً فقال له « تل » : الآن وجب علينا أن نرجع ، حتى لا يصيبنا مكروه ! وليس فى أيدينا ما ندفع به عادیته من السلاح . فراح صاحبه يهون عليه ويقلل له من خطره ، ويحدثه أن الذئب متى اعترض الإنسان فى طريقه ، فذلك بشرى بما تدخره له الأقدار من حظ سعيد ، وحاول « تل » أن يثنيه عن عزمه فى متابعة السير ، ويقنعه بفساد هذه الخرافة فلم يفلح .

ثم لم يلبث « تل » أن ظهر رجحان رأيه بعد قليل : فقد أقبل الذئب على جواد صاحبه ، وهو مربوط إلى بعض أشجار الغابة ، فافترسه وأكل من لحمه ما شاء ، و « تل » وصاحبه مشغولان بالصيد . فلما عادا ورأيا الذئب منهمكا فى تمزيق لحم الجواد وازدراده ، التفت « تل » إلى صاحبه ، وقال له متهكما :

« ما أصدق رأيك يا صاح : ألا ترى حُسْن الحظ وهو يأكل جوادك » .

* * *

يحسبنا هذا القدر على وجازته وإلا امتد بنا نفس القول فشغلتنا طرائف « مرآة البومة » عما هدفنا له من أغراض . على أننى أجتزىء فى الحديث بتلكم الطرفة التى تعزى إلى « تل » مرة وإلى « پات » مرة أخرى ، وإن كانت بثانيهما ألصق ، وبطبعه أليق .

فهى من أبرع ماقرأته من أخبار هذه الشخصيات الرائعة : فقد زعموا أنه بعث إلى خليلته أو حليلته ، فما يدرى ذلكم أحد على وجه التحقيق ، بالكتاب الآتى :

« أرجو ، إذا لم تصل إليك هذه الرسالة ، أن تسرعى — من فورك — بالكتابة إلىّ لأعرف أنك لم تقرئيها .